سوريا آذار راب
2014 – 2011

المتظاهرون الأوائل
عمل إغاثي وسفر... وبكاء على الأطلال

منذ انطلاق التظاهرات في سوريا، ترك العديد من الشباب ولاءاتهم السابقة. «اتحاد شبيبة الثورة» الذي كان انتماءً شبه وحيد للشباب الباحث عن «متنفس» تركه بعض مريديه للالتحاق بركب التظاهرات الأسبوعية... التي انطفأت بدورها سريعاً

دمشق ـ **أحمد حسان**

هنا، في حيّ الميدان الدمشقي، يستعد لجلسة سمر سبعة شبان كانوا من الفاعلين في التظاهرات الاحتجاجية، ولاحقاً في «تنسيقيات» المعارضة الخاصة بالحي.
عرق بلدي، دخان «الحمراء الطويلة»، وإضاءة خافتة، هي طقوس «السهرة العامرة»، تضاف إليها روح الانهزام الطاغية على معظم أحاديثهم.
ينهالُ الجامعي مصطفى بالسباب والشتائم على النظام و«داعش» و«جبهة النصرة»، فهم «صادروا أروع ثورة يمكن أن يشهدها التاريخ، ثورة رسَمها المتظاهرون والجيش الحر بيد واحدة». يسارع راضي، الواقعيّ حسب ما يصفه أصدقاؤه، إلى الرد: «أيه... وأعداد اللصوص في الجيش الحر لا يستهان بها أيضاً». يتعارك الشابان، يبكي أحدهما، ويضطر الجميع إلى مغادرة المنزل؛ «لأن أصواتنا علَت، وهناك شبيحة بين الجيران».
هذا واحد من خلافات «المتظاهرين الأوائل» طلباً لـ«الحرية» قبل أن تخيب آمالهم، حول صحّة حمل السلاح، وصوابية شعار «إسقاط النظام»، وتأثير تماشيهم مع هتاف «الله أكبر» وغيره من الشعارات الفئوية. يرفض العشريني حسن الحديث ووصف حمْله للسلاح بأنه كان خطأً؛ لأنه «كان الطريق الوحيد المفتوح أمام أبناء التضامن. وكل الكلام على السلمية في ذلك الوقت هو مجرد ثرثرة لا طائل منها». وعن تأييده للمصالحات اليوم، يجيب «الثائر» المخذول: «لم يبق منفذ إلا التسويات. الأعراب والأغراب ضحكوا علينا ولم يقدموا الدعم، إلا لألويتهم التي يقودها تجار الدين»... وينهي حديثه ساخراً: «على فكرة، أنا كنت عضواً عاملاً في حزب البعث».
مع عسكرة «الثورة»، رفض كثيرون حمل السلاح. بعضهم فضّل السفر للهرب من واقع تراجع الحركة السلمية. يقول ريبال، الموجود الأردن: «سافرت لأنني لم أعد أحتمل الحالة التي أصابت الشباب الثوري بعد انتهاء زمن التظاهرات. أصبحت الحياة عبارة عن انتظار واهم لنصر لن يأتي، فكان السفر الوسيلة الوحيدة للهرب من هذا الواقع الأسود». أما من لا تسمح لهم ظروفهم بالسفر، فيعيشون اليوم أكثر أيامهم سوءاً. بعضهم أصرَّ على الاستمرار في النشاط، ولكن عبر منظمات المجتمع المدني غير الحكومية (التي تعاظم حضورها في سوريا خلال الأحداث) أو عبر «التنسيقيات» على مواقع التواصل الاجتماعي.
تصبُّ سلمى، الناشطة سابقاً في «تجمع شمس»، اللوم على النظام وحده؛ «فلو تعامل مع المتظاهرين بأسلوب مغاير، لما وصلنا إلى هذه الحال». وتضيف في حديثها مع «الأخبار»: «كنا مجموعة من الوطنيين والوطنيات، نشارك في التظاهرات وننشر قيم الوحدة الوطنية. بعد التسليح لم يبقَ لنا دور. المعارك قضت على الحركة المدنية». أما رهام فتقول: «سابقاً كنت من المشاركات في إحدى الجمعيات التي تهتم بالنازحين في المدارس،

> **أصبحت الحياة عبارة عن انتظار واهم لنصر لن يأتي**

كنت أدرّس الأطفال اللغة الإنكليزية. الآن أنا مهتمة بالجانب النفسي للأطفال؛ إذ نقوم أنا ومجموعة أخرى بنشاطات خاصة بهم». ولدى السؤال عن مصادر تمويل هذا النوع من الجمعيات، تجيب: «لا يهمني من أين يأتي التمويل، الأهم عندي أن هذه الأعمال تشعرني براحة الضمير، فعلى الأقل لم أبقَ في منزلي عاجزة».
بعيداً عن المغالاة في التشاؤم أو التفاؤل، يشرح أنس رؤيته لما جرى: «التظاهرات السلمية واجهت بطش الأجهزة الأمنية من جهة، وتعرّضت للتضييق نتيجة التسليح من جهة أخرى. من يتشاءم أو يفرط في التفاؤل لا يفهم الظرف السياسي الحالي، ولذلك يشعر بالانهزام ويغرق بالعبثية». يبادر رفيقه جواد في الحديث: «العمل على توحيد صفوف الوطنيين، ممن يرفضون التدخل الخارجي والواقع الاقتصادي الاجتماعي، وهؤلاء كثر بغض النظر عن انتماءاتهم الحالية، هو ما سيجعل من المستقبل القادم لسوريا وشعبها مستقبلاً مشرقاً».

شعلة «التنسيقيات» تخبو

كانت «التنسيقيات» إحدى أهم الأدوات التي استخدمها المعارضون في نشاطهم؛ إذ لم يقتصر دورها على بثّ الأخبار، بل كانت، حسب مدير صفحة «تنسيقية حي القابون»، «وسيلة للتنظيم بالدرجة الأولى، فغالباً ما كنا نتمكن من التواصل مع الشباب المعارضين في الحي، ونتفق على تفاصيل الخروج في التظاهرات». وفي الإجابة عن التساؤل عن خفوت نشاط «التنسيقيات» اليوم، وتوقف الكثير منها عن العمل، يقول الشاب الذي رفض الكشف عن اسمه: «السبب في ذلك لا يعود إلى تباطؤ مديري الصفحات أو تقاعسهم، بل إلى عدم تفاعل الناس مع التنسيقيات. إذا استطعنا أن نرسم مخططاً بيانياً لنسبة تفاعل الناس مع التنسيقيات، فسنراه في هبوط مستمر منذ توقّف التظاهرات على الأرض».

نازحون يعيشون «على العضم»: سنرجع يومًا!

من مشاكل العمل الإغاثي بيع المعونات التي تقدّمها المنظمات الدولية (أ ف ب)

دمشق ـ **عمر الشيخ، مودة بحاح**

«لو نرجع، فسنقبل ما بقي من مساحة لبيتنا الذي كان...». قالها أبو علاء، الذي يتحدث عن مسيرة نزوحه الماراتونية مع أسرته، من حيّ السيدة زينب جنوب دمشق، الى أطراف جرمانا. وبين المنطقتين «نزحنا إلى الكسوة ثم إلى الحسينية فدرعا وصولاً إلى السويداء ثم غوطة دمشق الشرقية حتى يبرود»! منذ شهر رمضان الماضي، سكن أبو علاء، لشهرين، في دكان (إيجاره 8 آلاف شهرياً)، قبل أن يستقر في بيت «على العضم» في جرمانا (5 آلاف شهرياً) مع ما بقي من ثياب وأغطية وأوان أنقذها من بيته في حي السيدة زينب. عبر بخاخات الجدران «أرسل مجهولون تهديداً بتفجير الحي بأكثر من عشر سيارات مفخخة كي نغادر. لم نستجب حتى انفجرت أول سيارة، فهربنا بعد ساعات. من نسي شيئاً وعاد الى بيته، وُجد مقتولاً ذبحاً! إذ كان الحي خطاً فاصلاً بين الجيش والعناصر المسلحين الذين يتوارون في الحارات الخلفية، يضيف.
أبو علاء وزوجته وصغارهما يقيمون اليوم في منزل تعشّش فيه الرطوبة، وساعدت منظمة اللاجئين والمهجرين العراقيين على فرش صالونه بأغطية «الفليكس»، فيما استبدل زجاج النوافذ بأكياس النايلون.
في الطابق الرابع من المبنى غير المكتمل نفسه يقيم الفلسطيني أبو نورس القادم من الحسينية في ريف العاصمة. يقول الرجل الذي يخدم في «جيش التحرير» في مخيم اليرموك: «أقمت في خيمة في احدى المدارس التابعة للأونروا في جرمانا، لكن صحة الوالدة تدهورت، كما عانيت وزوجتي وأختي وأولادي الثلاثة صحياً». أبو نورس حصل من «الأونروا» على أغطية و«فرش» اسفنجية وشوادر لإغلاق النوافذ.
وتستقطب مدينة جرمانا آلاف النازحين والمهجرين من المناطق الساخنة. وبعد امتلاء الملاجئ والمدارس المخصصة لاستقبالهم، بدأت ظاهرة السكن في أبنية غير مكتملة (على العضم)، تفتقد أبسط مقوّمات الحياة.

الانتظار يعمّ الفنادق وبيوت العائلة

الحياة المؤقتة لـ«أبو علاء» و«أبو نورس» لا تختلف كثيراً عن حياة سعاد، الأرملة التي عادت إلى مدينتها دمشق قبل حوالى سنتين بعد توتر الأوضاع في حمص، ولم تتمكن من حجز مكان لها في منزل العائلة مع أولادها... بعدما بات ممتلئاً بالنازحين ممن قدموا من مختلف مناطق ريف دمشق. فكان الخيار الوحيد أمامها استئجار غرفة